استراتيجياتُ الخطاب الإقناعي في (توحيد المُفضَّل)

م.د موفق مجيد ليلو

المديرية العامة لتربية ميسان

Persuasive Discourse Strategies in (Tawhid Al-Mufaddal)

Prof. Dr. Mowaffaq Majid Lelo

General Directorate of Education in Maysan

الملخص

يمثِّل كتابُ (توحيد المُفضَّل) خطابًا إقناعيًا بامتياز، لما يتوافر عليه من حجةٍ بالغةٍ وبراهينَ ساطعة يذعن لها كل ذي عقل سليم، والكتاب مكوّن من أربعة مجالس، حضرها المُفضَّل بن عمرو عند الإمام الصادق (ع) ليردَّ من خلالها على دعوات الملحدين والمضللين، وتمتاز بأسلوب الجدل والحوار العقلاني بعيدًا عن الأدلة النقلية. تقدِّم هذه القراءة لكتاب (توحيد المُفضَّل) صورة عن أساليب الخطاب الإقناعي واستراتيجياته، وجاءت في مبحثين: تضمّن الأول التعريف الموجز بمصطلحات البحث وهي: الاستراتيجية والخطاب والإقناع وظلاله. فيما عرض الثاني بعضًا من استراتيجيات الإقناع التي توزعت بين أساليب الطلب (الأمر والاستفهام والنداء)، والحوار الافتراضي، والتمثيل بوصفه ظاهرةً متميزة في الخطاب، وآلية فعَّالة في الإقناع. ثم ختمت الدراسة بأهمّ النتائج.

Abstract:

The book (Tawhid al-Mufaddal) represents a persuasive discourse par excellence because of the great argument and bright proofs that it has in the sense that every person of sound mind acquiesces in. The book consists of four sessions attended by Al-Mufaddal bin Amr at Imam Al-Sadiq (peace be upon him) to respond to the calls of atheists and misleaders, characterized by a method of argument and rational dialogue away from transmission evidence. This reading of the book (Tawhid al-Mufaddal) presents a picture of persuasive discourse methods and strategies, which came in two sections: The first included a brief definition of the research terms: strategy, discourse, persuasion and its shadows. The second section presented some of the persuasion strategies that were distributed among the methods of demand (order, question and appeal), virtual dialogue, and representation as a distinct phenomenon in the discourse, and an effective mechanism in persuasion. Then the study has been ended with the most important results.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا شكَّ أنَّ عصر الإمام جعفر الصادق (ع) كان حافلاً بالحراك الفكري، الذي نتج عن تأسيس الفرق والمذاهب الكلامية وازدهار المناظرات والجدل، وهو بعد ذلك يمثّل مرحلة الانتعاش الفكري في فكر أهل البيت (ع)، مع عمق المظلومية التي نالتهم على مدار الزمن وعظمها.

غير أنّ تلك الفسحة التي خلقتها الأوضاع السياسية آنذاك- نتيجة استيلاء بني العباس على السلطة خلفًا لبني أميَّة- فخلق ذلك الأمر فراغاً فكريًا تعدّدت فيه الشبهات واستفحلت الدعوات، لتخلق صراعًا فكريًا استمرت إرهاصاته إلى يومنا هذا. ولم يكن إلّا أنْ يتصدَّى الامام الصادق (ع) للردِّ على تلك الشبهات، لذا فقد امتلأت المصادر التاريخية والروائية بالمناظرات والمجالس والحجاج، التي ربما كان بعضها بعين الحكومة ورعايتها.

ومن بين تلك الأسفار المهمة صحيفة المُفضَّل بن عمرو، التي اشتهرت بـ(توحيد المُفضَّل)، وقد جمعت الحجة المفحمة والاستدلال العقلي وخطاب الآخر وفق أرضية مشتركة، بحيث تجعله يذعن لها ويتوجّه على وفق رؤيتها، وهي أربعة مجالس حضرها عند الإمام (ع) ليردَّ من خلالها على دعوات الملحدين والمضللين، فضلًا عن أسلوب الجدل والحوار العقلاني بعيدًا عن الأدلة النقلية الا ما ندر. إنَّ خطابًا هذا قصده، وتلك علومه جدير بأنْ يكون موضع اهتمام الباحثين، وأن تتدارسه الأمة لتنهض به في مواجهة التحديات الفكرية، وتستلهم منه أساليب الرد والحوار مع الآخر بعيدًا عن معاول التكفير والاقصاء، فهو نصٌّ مستحضرٌ لكل عناصر النصية وخطابٌ إقناعيٌ متميزٌ بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

من هنا تنطلق هذه القراءة لكتاب توحيد المُفضَّل لتقدّم صورة عن أساليب الخطاب الإقناعي واستراتيجياته، في الوقت الذي ما يزال الدين فيه غضًّا قريب العهد بالناس، والإمام بينهم يتصدّى للشبهات.

إنَّ هذا الخطاب الإقناعي الذي حملته مجالس المُفضَّل كفيل بإقناع كل منصف عاقل متدبّر، بوجود خالق حكيم عالم قادر مهيمن على هذا الكون، وتسدُّ الشبهات التي قد تعرض لكل ذي لبٍّ، أو منطق عقلائي، بعيدًا عن العقد النفسية والأزمات الأخلاقية، من خلال توظيف المناهج اللسانية الحديثة يمكننا التأصيل لوجود أصول الحوار أو شروطه وأسسه في النصوص التراثية.

وقد أفاد البحث من الدراسات السابقة في هذا الميدان ومنها:

(استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية) د. عبد الهادي ظافر الشهري و (في بلاغة الخطاب الإقناعي) د. محمد العمري، وبعض الدراسات التداولية والحجاجية الأخرى.

وقسمت الدراسة على مبحثين: تضمّن الأول التعريف الموجز بمصطلحات البحث، وهي الاستراتيجية والخطاب والإقناع وظلال الإقناع، وأعني بها المفاهيم التي ترتبط بمفهوم الإقناع كالجدل والبرهان والحجاج. فيما عرض المبحث الثاني لخطاب الإقناع في توحيد المُفضَّل ودراسة بعض من إستراتيجيات الإقناع التي توزّعت بين أساليب الطلب (الأمر والاستفهام والنداء)، والحوار الافتراضي، والتمثيل بوصفه ظاهرة بارزة في الخطاب، وآلية فعّالة في الإقناع. ثم خاتمة بأهّم النتائج.

المبحث الأول

في الخطاب والإقناع

ثمَّةَ مصطلحات لابدَّ من بيانها قبل الخوض في تحليل الخطاب، وهي: (الاستراتيجية، الخطاب، الإقناع وظلاله)، من أجل تكوين صورة واضحة عن طبيعة الخطاب المدروس.

الاستراتيجية:

يعود تاريخ هذا المصطلح إلى القرن الخامس قبل الميلاد (strategie)، في القبائل الأثينية التي كانت تختار عشرة أشخاص مخططين تنحصر وظيفتهم في تأمين مدرسة للتخطيط تتولى قيادة الجيش[1]. فهو

مفهوم عسكري بالدرجة الأولى يتعلّق بالتخطيط من خلال استعمال الموارد بفاعلية من أجل تدمير الأعداء، أو فن إعداد الخطط العامة ووضعها كوسيلة للوصول إلى الهدف، من خلال الاستثمار الأمثل للإمكانات المتوافرة لتحقيق الأهداف.

ثم استعمل هذا المصطلح في مجالات أُخرَ، كالإدارة والسياسة وتحليل الخطاب، غير أنَّه أدّى دورًا مهمًّا في التعبير عن التقنيات والآليات والوسائل التي يستعين بها المخاطِب لإقناع المتلقي. وحدَّد بعضهم الاستراتيجية بأنّها: «مجموعة من القواعد المحددة لسلوك لاعب في أي موقف لعب ممكن»[٢]. وعرّفها الشهري بأنَّها «المسلك المناسب الذي يتخذه المترسل للتلفظ بخطابه، من أجل تنفيذ إرادته والتعبير عن مقاصده، التي تؤدّي لتحقيق أهدافه، من خلال استعمال العلامات اللغوية وغير اللغوية، وفقا]كذا[لما يقتضيه سياق اللفظ بعناصره المتنوّعة، ويستحسنه المرسل»[٣].

ويرى جين كارون أنَّه من أجل الاستعمال الدقيق لهذا اللفظ يجب أن تتوافر الشروط الآتية:

١- أن يتسم الموقف بعدم اليقين.

٢- أن يروم المتكلم هدفًا بطريقة واعية أو بطريقة غير واعية.

٣- وأخيرًا أن يكون هناك تتابع منتظم لاختيارات، يترجم (خطة) عامة، وهي خطة ليست واعية بالضرورة، (لا يمكن أن توصف بالاستراتيجية سلسلة من القرارات الخاضعة للمصادفة)[٤].

الخطاب:

يأتي الخطاب في اللغة من الخطب قيل: «خطب: الخَطْب: سَبَبُ الأمر... والخِطاب: مراجعة الكلام. والخُطبة: مصدر الخطيب... وجمع الخطيب خُطَباء، وجمع الخاطِب خُطّاب»[٥]. وقال ابن منظور: «الخَطْبُ: الشَّأْنُ أو الأَمْرُ، صَغُر أو عَظُم؛ وَقِيلَ: هُوَ سَبَبُ الأَمْر. يُقَالُ: مَا خَطْبُك؟ أَي مَا أَمرُكَ؟ وَتَقُولُ: هَذَا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأَمر الَّذِي تَقَع فِيهِ المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن»[٦]).

وأمّا في القرآن الكريم: فقد وردت هذه اللفظة في ثلاثة مواضع، وهي:

{وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ }(ص/20)

{إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} (ص/23)

{رَبِّ السماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}(النبأ/37)

التأمّل في النصوص القرآنية يظهر أنّ الخطاب يقترب من مفهوم الحجّة الدامغة والبالغة، فقد اقترنت بالحكمة في النص الأول، وفي النص الثاني جاءت لتشير إلى هيمنة خطاب أحد المتخاصمين على الآخر من خلال الغَلَبَة فِي المُحَاجَّة. وكذلك النص الثالث الذي يشعر المتلقّي بأنَّ الوقوف بين يدي الرحمن سبحانه لا يترك حجةً أو مجالاً للدفاع؛ لأنَّه العالم بخفيّات الأمور والمطلع على السرّ وما هو أخفى.

قال الراغب في مفرداته: «الخطب والمخاطبة والتخاطب: المراجعة في الكلام، ومنه الخُطبة والخِطبة... والخطب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، قال تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ} طه:95 ،{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} (الحجر/57)، وفصل الخطاب: ما ينفصل به الأمر من الخطاب»[٧].

وأمّا في الاصطلاح، فيتنوّع مفهوم الخطاب بتنوع المداخل المعرفية، وفي الأحوال كلها فإنّ هذا المصطلح ربما تبلور بشكل واضح بصورته المعرفية في كتابات ميشيل فوكو، الذي استحال عنده إلى رؤية متكاملة وأيديولوجيا لتفسير المعرفة. ومن هنا فإنَّ الوقوف على تعريف أو تحديد لهذا المفهوم مع الثورة الاصطلاحية التي تجتاح العالم يكاد يكون صعبًا مستصعبًا، فالخطاب «لا سبيل لحصره في معنى بعينه؛ لأنّ له تاريخًا معقدًا ويرد في سياقات شتى لدى المفكرين المختلفين، بل لدى المفكر الواحد أحيانًا»[٨].

يشير مصطلح (discourse) إلى مجموعة من المعاني والدلالات، ويمكن تحديد أهمّ ملامح الخطاب بالمقارنة بينه وبين النص، إذ يرى بعضهم «أنّ النص قد يكون مكتوبًا في بعض الاستخدامات، في حين أنَّ الخطاب شفاهي، وقد يكون النص غير تفاعلي بينما الخطاب تفاعلي... قد يكون النص قصيراً أو طويلاً، أمّا الخطاب فيدلّ على طول مؤكّد ، ولابد للنص أن يتسم بتماسك سطحي، في حين لابدَّ أن يتميّز الخطاب بتماسك أعمق»[٩].

ويرى د.سعيد علوش أنَّ الخطاب يتحدّد بأنَّه «مجموع خصوصي لتعابير تتحدّد بوظائفها الاجتماعية ومشروعها الأيديولوجي»[١٠]، ويعبّر عن أجزائه بأنَّها «أنماط كلمات جمعت بحسب وظيفتها وخصوصيتها الصرف- تركيبية»[١١].

الإقناع وظِلاله

الإقناع:

مصدر أقنع، وأمّا القَنَاعَةُ فهي «الاجتزاء باليسير من الأعراض المحتاج إليها. يقال: قَنِعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً وقَنَعَاناً: إذا رضي، وقَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعاً: إذا سأل... قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، (الحج/ ٣٦)... الْقَانِعُ هو السّائل الذي لا يلحّ في السّؤال، ويرضى بما يأتيه عفوًا... وأَقْنَعَ رأسه: رفعه»[١٢]. فالإقناع يتولّد عن طريق الأدلة والبراهين التي تجعل المخاطَب يذعن إلى الخطاب، وصيغة أفعل للفعل تشير إلى معنيين، إذ توحي بالاجتزاء وتحقّق القناعة، أو تكون الهمزة للسلب بمعنى كشف القناع وإزالته من خلال البراهين الناصعة التي تسقط الأقنعة وتظهر الحقائق. وثمة مصطلحات تقترب من الإقناع أو ترتبط به بوجه أو بآخر ومنها:

١- الجدل: «الجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته»[١٣]. أو هو «القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. دفع المرء خصمه عن إفساده قوله: بحجة، أو شبهة. أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة»[١٤]. وهو يختلف عن الجدال الذي هو «عبارة عن مراء يتعلّق بإظهار المذاهب وتقريرها»[١٥].

٢- البرهان:

هو «بيان للحجة، وهو فُعلان مثل الرجحان والثنيان وقال بعضهم: هو مصدر برّه يبرّه إذا ابيضّ... والبُرْهَة: مدة من الزمان، فالبُرْهَان أوكد الأدلّة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدًا لا محالة، وذلك أنّ الأدلة خمسة أضرب: دلالة تقتضي الصدق أبدا. ودلالة تقتضي الكذب أبدًا. ودلالة إلى الصدق أقرب. ودلالة إلى الكذب أقرب. ودلالة هي إليهما سواء. قال تعالى: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾(البقرة/ ١١١)»[١٦].

امّا في الاصطلاح فهو: «القياس المؤلف من اليقينيات، سواء كانت ابتداءً؛ وهي الضروريات، أو بواسطة؛ وهي النظريات. والحدّ الأوسط فيه لا بد أن يكون علّةً لنسبة الأكبر إلى الأصغر؛ فإن كان مع ذلك علةً لوجود تلك النسبة في الخارج أيضًا، فهو برهان لمِّي، كقولنا: هذا متعفن الأخلاط، وكل متعفّن الأخلاط محموم، فهذا محموم، فتعفن الأخلاط، كما أنه علة لثبوت الحمى في الذهن، كذلك علة لثبوت الحمى في الخارج، وإن لم يكن كذلك كان لا يكون علة للنسبة إلاّ في الذهن، فهو برهان إنِّي، كقولنا: هذا محموم، متعفّن الأخلاط، فهذا متعفّن الأخلاط، فالحمى، وإن كانت علةً لثبوت تعفّن الأخلاط في الذهن، إلاّ أنها ليست علة له في الخارج، بل الأمر بالعكس. وقد يقال على الاستدلال من العلّة إلى المعلول: برهان لميّ، ومن المعلول إلى العلة: برهان إنيّ»[١٧].

٣- الحجاج:

يشير معنى الحُجَّة إلى «وَجْهُ الظَّفَر عند الخُصومة. والفِعل حاجَجْتُه فَحَجَجْتُه. واحتَجَجْتُ عليه بكذا. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ. والحِجاج المصدر»[١٨]، ويحدِّد ابن فارس هذا الأصل في أربعة معانٍ هي:

القصد، الحِجَّة وهي السّنَة. الحِجَاجُ، وهو العظْم المستدير حَولَ العَين. والحَجْحَجة النُّكوص[١٩]. ولا شك أن المعنى الأول هو الأقرب إلى معنى الحجاج؛ لأنَّه تضمّن معنى الظفر على الخصم والغلبة بالحجة.

وأمّا الحجاج بوصفه نظرية فموضوعه وغايته «هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[٢٠]. فالحجاج «هو العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات لدى مخاطبه بواسطة الوسائل اللغوية»[٢١].

وغايته إذعان المتلقي بطريق الاقتناع، وليس الإقناع، وثمة فرق بينهما، إذ «إنَّ المرء في حالة الاقتناع يكون قد أقنع نفسه، بواسطة أفكاره الخاصة، أما في حالة الإقناع فإنَّ الغير هم الذين يقنعونه دائما»[٢٢]. ويعرِّفه د. العزاوي بأنَّه «تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثّل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثّل الحجاج في انجاز متواليات من الأقوال، بعضها هو بمثابة الحجج، وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها»[٢٣]. فميدانه ليس البديهيات وإنما القضايا المشكّكة.

وقيل بأنه: «تقديم براهين بواسطة البشر لتبرير معتقداتهم وقيمهم وللتأثير في أفكار الآخرين وأفعالهم»[٢٤]، وعرَّفه د. الولي بأنّه «توجيه خطاب إلى متلق ما لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا، وهو لا يقوم إلاّ بالكلام المتألّف من معجم اللغة الطبيعية»[٢٥]، وهذا يعني ان الحجاج هدفه التأثير والإقناع بالدرجة الأولى عن طريق توظيف اللغة بأساليبها وجمالياتها للإقناع، مع التركيز على إقناع المخاطب وإذعانه لواضح الحجج وقوة البرهان.

وثمة فروق بين الاستدلال والحجاج؛ «لأنهما ينتميان إلى نظامين جد مختلفين، نظام ما نسميه عادة بـ(المنطق)، ونظام الخطاب. إنَّ استدلالا ما (القياس الحملي أو الشرطي مثلا) لا يشكل خطابا بالمعنى القوي الذي يعطيه ديكرو لهذا المصطلح،... أمّا الحجاج فهو مؤسّس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب»[٢٦].

ويشير بعض الدارسين إلى أسس الحجاج وهي: القصد المعلن، والتناغم والاستدلال، والبرهنة[٢٧]. ويرتكز على ثلاثة أبعاد رئيسة، وهي:

«أولا: أخلاق القائل (المحددات السياقية).

ثانيا: تصيير السامع في حالة نفسية ما (التأثير)

ثالثا: القول نفسه من حيث هو يثبت أو يبدو أنّه يثبت»[٢٨].

وهي المحددات والأبعاد التي ذكرها ارسطو في بيان الحجة تحت مسميات (الايتوس والباتوس واللوغوس)[٢٩].

أمّا وسائل الحجاج واستراتيجياته فتتوزّع بين اللغويّة الصرفة والبلاغية والمنطقية وشبه المنطقية، وأمّا المبادئ الحجاجية فهي «مجموعة من المسلَّمات والافكار والمعتقدات المشتركة بين أفراد مجموعة لغوية وبشرية معينة، والكل يسلّم بصدقها وصحتها»[٣٠]، وهي مشتركات ترتبط بالأيديولوجيات الجماعية يتقبّلها العقل السليم، وأحيانا تكون بديهيات أو وجدانيات لا تحتاج برهنة، أو مشتركات معرفية وجماعية لمجموعة بشرية معينة، كعادات الشعوب وأخلاقها وقيمها. وتتصف عادة بأنَّها (مشتركة، وعامة، نسبية، وتدرّجية)[٣١]. ويرى د. حمداوي أنّ المقاربة الحجاجية تهدف إلى «تحليل النصوص أو الخطابات التي تتضمّن أبعادًا حجاجية مباشرة أو غير مباشرة، لذا على الباحث أن يحلِّل النصَّ بنية ودلالة ووظيفة»[٣٢].

المبحث الثاني

خطاب الإقناع في توحيد المُفضَّل

خصائص الخطاب:

من خلال النظر والتدبّر في توحيد المفضل يمكن تلخيص أهم الملامح الحجاجية للخطاب في كتاب التوحيد للمفضل بنقاط، وهو ما يهيئ لنا رؤية واضحة عن طبيعة الخطاب المدروس، وأهمها:

١- استعمال السؤال الإنكاري لإقحام الخصم.
٢- استعمال البرهان والحجة بالاستناد إلى الأوليات والبديهيات العقلية.
٣- استعمال التصوير (التشبيه والمجاز والكناية) في تكوين القناعات وتبديد الشبهات.
٤- التكرار في مناسبات كثيرة والتركيز على المقدمات العقدية.
٥- استعمال الروابط الحجاجية ووسائل التعليل مثل(لام التعليل، فاء السببية، لأنَّ،...)، لاسيما في مواضع الحجاج العقدي.
٦- البناء الهرمي للنصوص (أو القضايا) بالتعبير المنطقي في تسلسل فريد يعجز المرء عن محاكاته. وتقديم فقرة على أخرى في تدرّج وتسلسل منطقي.
٧- فرادة الانتقاء للكلمة. وقوة الإيقاع وتساوي الفقرات، بل تماثلها أحيانا، وتوظيف البديع كوسيط إقناعي تطرب له النفس ويذعن له العقل والخيال.

بين يدي الكتاب:

لعل أول ما يمكن الحديث عنه هو العلة من إملاء هذه الصحيفة، وهي انتشار ظاهرة الإلحاد والتشكيك بالقرآن الكريم والنبوّة، وهو أمر ليس بجديد، وربما كانت للإلحاد جذور منذ بدء التفكير الفلسفي، ولا سيما بعد سيادة العقلانية في الغرب، والاصطدام بالفكر الكنسي الذي مهّد لظهور أولى نزعات الانسلاخ عن الدينية والانخراط في الحريات المطلقة والتحرّر من قيود الدين السماوي أو الوضعي، بل يكفي- بحسب زعمهم- أن تكون الإنسانية هي نقطة الاشتراك بين البشرية كلها، غير أننا نجد في التأريخ شواهد كثيرة على التجارب التي أرادت إبعاد الدين عن الحياة وفصله عنها باءت كلها بالفشل، وظلّ الإنسان بطبعه يرنو إلى الدين بوصفه الشيء الوحيد الذي يمكن أن يوفِّر له سكون النفس وخلاصها من ضغوط الحياة، فتعود النفس إلى فطرتها ونفختها الإلهية.

يشير الراوي في مدخل الصحيفة إلى الحادثة أو السياق الزماني والمكاني لإملاء الصحيفة[٣٣]، ويبين سبب إملاء كتاب المُفضَّل بن عمرو. فقد وجد المُفضَّل أنَّ حديث ابن أبي العوجاء مع صاحبه يثير الشكوك والشبهات في قلوب السامعين، وهو ما يستدعي ردًّا علميًا ومنطقيًا وليس ردودًا انفعالية- كالتي صدرت من المُفضَّل- وهو ما جعل ابن أبي العوجاء يردّ ردًا متزنًا استفزّ به المُفضَّل وجعله يفكّر، ويعود إلى إمامه الصادق (ع) محزونًا، فلم يكن المُفضَّل يمتلك ردًا يفحم به خصمه. ولعل أهمّ ما يكشف عنه هذا النص ما يأتي:

١- التشكيك بنبوة الرسول الأعظم (ص)، فهو- في نظر المشكّكين- يعدّ فيلسوفًا مدعيًا- حاشاه- لمرتبة عظمى مصحوبة بمعجزات، والتشكيك بالنبوة سيؤدّي إلى التشكيك بكل ما صدر عنه، ومنه الشك بوجود الخالق جلَّ وعلا.
٢- إنكار وجود الخالق والمدبّر لهذا الكون، وترك الكون وجريانه للصدفة وعدم التدبير.
٣- استجابة المُفضَّل الانفعالية التي تخالف قواعد الحوار العلمي في مقابل جواب ابن أبي العوجاء الذي كان أكثر اتزانًا في جوابه.
٤- كان ابن أبي العوجاء- على ما كان عليه من الإلحاد- منصفا في وصفه لخصمه فيما ذكره عن حوار الإمام الصادق (ع) لهم، وقد مرّ في النص فلا حاجة لإعادته هنا.
٥- لم يكن المُفضَّل يمتلك أصول الحوار والحجج والبراهين على إثبات، وهو ما جعله يهرع إلى الإمام الصادق (ع) ليستقي منه هذه الأمور.
٦- اهتمام المُفضَّل الكبير بهذا الظاهرة التي تركته متألمًا محزونًا مفكرًا بالدين وأهله، وهو يدلّنا على مدى اهتمام الإنسان الرسالي بدينه وأمته، بل عليه أن يتصدّى بكل ما أوتي من طاقة للذود عن حياض الدين.
٧- كان جواب الإمام (ع) أنَّه سيلقي على المُفضَّل أصولاً في الأدلة العقلية المحضة بعيدًا عن الدليل النقلي الذي لا يؤمن به الآخر، إذ كان لابدَّ من إيجاد أرضية مشتركة للحوار مع الآخر، الذي يلجأ- بحسب زعمه- إلى الأدلة

العقلية في الحوار، فهو لا يؤمن بخالق أو نبي أو كتاب مقدس، فكيف للمحاور والمناظر أن يعتمدها في حواره. ولذا كان (ع) يشير إلى أصول من الطبيعة والإنسان والشرور مع الاستعانة بالأمثلة التقريبية لإثبات الحجج والبراهين.

مثلث الخطاب:

يمتلك نص (توحيد المُفضَّل) رصيدًا خطابيًا وعلميًا كبيرًا لما فيه من توجيه وإقناع وحجة عقلية تستدعي إذعان المتلقي للخطاب، على وفق مشتركات وبديهيات تجعل المتلقي يتأمّل في النص، مع استحضار التأمّل والتفكير في كل مفصل من مفاصل النص، وكل وقفة.

إنَّ هذا النص يتمركز حول قدرته على استمالة المخاطب بإيجاد أرضية مشتركة بينه وبين المخاطب، تستدعي بوساطة اللغة وإمكاناتها كلّ الأدلة العقلية والحسية من أجل توجيه المخاطب والهيمنة على الخطاب بقوة العقل وبرهان الحجة. من هنا نجده يوظّف كل ما أمكن من وجوه محتملة في الحوار، تكثر فيها ألفاظ القول والحوار، بحيث يشار فيها إلى الاحتمالات التي قد ترد على رد الفكرة أو الاستدلال.

واذا كان مبدع النص هو الإمام الصادق(ع)، فإنَّ ذلك الأمر يعيدنا على وفق المنظور الإمامي إلى رؤية تتجسّد في أنَّ قول المعصوم- في شكل من الأشكال- هو من حيث المعنى قول الخالق سبحانه تعالى؛ لأنّهم حجج الله ولا ينطقون عن الهوى- كما ثبت في محلّه. ومن هنا فإنَّ النص- مع التسليم بصحة النقل[٣٤]، هو نص صادر عن بيت النبوة والعصمة، ولا يخالف العقل أو النقل بل يسايرهما، وهو خطاب إقناعي بامتياز.

أمَّا المتلقي فهو يتوزّع بين:

١. المتلقي الأول للنص أو المباشر وهو المُفضَّل بن عمرو.

٢. المتلقي الثاني غير المباشر ويكون خاصًا، وأعني به جماعة ابن أبي العوجاء والمعطّلة وغيرهم من فرق ومذاهب تنفي وجود الخالق أو المدّبر لهذا الكون.

٣. المتلقي العام أو الكوني: وهو كل متلق للنص بعيدًا عن حدود الزمان والمكان، فهو خطاب مستمر أو مفتوح.

شروط التلقي:

في ختام المجلس يوجّه الإمام الصادق(ع) المفضل بتوجيهات تمهد وتهيئ النفس لقبول العلوم التي يجيب فيها عن شبهات الملاحدة. وهي:

«يا مفضّل خذ ما آتيتك، وأحفظ ما منحتك، وكن لربك من الشاكرين، ولآلائه من الحامدين، ولأوليائه من المطيعين، فقد شرحت لك من الأدلة على الخلق، والشواهد على صواب التدبير والعمد، قليلاً من كثير، وجزءًا من كل، فتدبره وفكِّر فيه واعتبر به، فقلت: بمعونتك يا مولاي أقر على ذلك، وأبلغه إن شاء الله. فوضع يده على صدري، فقال: احفظ بمشيئة الله، ولا تنس إن شاء الله، فخررت مغشيا علي، فلما أفقت قال: كيف ترى نفسك يا مفضل؟ فقلت: قد استغنيت بمعونة مولاي وتأييده عن الكتاب الذي كتبته وصار ذلك بين يدي كأنما أقرأه من كفي، فلمولاي الحمد والشكر كما هو أهله ومستحقه. فقال: يا مفضل فرِّغ قلبك، وأجمع إليك ذهنك وعقلك وطمأنينتك فسألقي إليك من علم ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله بينهما وفيهما من عجائب خلقه، وأصناف الملائكة وصفوفهم ومقاماتهم ومراتبهم إلى سدرة المنتهى، وسائر الخلق من الجن والإنس، إلى الأرض السابعة السفلى وما تحت الثرى، حتى يكون ما وعيته جزءاً من أجزاء انصرف إذا شئت مصاحباً مكلوءًا، فأنت منا بالمكان الرفيع، وموضعك من قلوب المؤمنين موضع الماء من الصدى، ولا تسألنَّ عما وعدتك حتى أحدث لك منه ذكرا. قال المُفضَّل: فانصرفت من عند مولاي بما لم ينصرف أحد بمثله»[٣٥].

في النص السابق شروط تلقي النص وتحمله، وهي شروط ينبغي أنَّ يتصف بها المتلقي لقبول الخطاب وفهمه، فلا يكفي أن يتقبّل الخطاب مستمعًا فقط، بل يمكن أن تكون هذه الشروط هي:

١. خذ ما آتيتك.
٢. وأحفظ ما منحتك.
٣. وكن لربك من الشاكرين.
٤. ولآلائه من الحامدين.
٥. ولأوليائه من المطيعين.
٦. فتدبّره.
٧. وفكِّر فيه.
٨. واعتبر به.
٩. فرِّغ قلبك.
١٠. واجمع إليك ذهنك وعقلك وطمأنينتك

تتحدَّد استراتيجيات التلقي هنا في (استلام الرسالة، الحفظ، الشكر، الحمد، الطاعة، التدبّر، التفكّر، الاعتبار، تفريغ القلب لها، جمع الذهن والعقل والطمأنينة). وعلى ذلك فإنَّ تقبّل العلم (المعلومة أو الرسالة) محتاج إلى توافر هذه الشروط مجتمعة لترابطها، وعدم إمكانية الفصل بينها من أجل تحقيق الأثر ونجاح الهدف. فاستلام الرسالة دون حفظها أو التدبر والتفكير فيها وإفراغ القلب لها لا يمكن أن يؤتي ثماره، وتفتح بذلك للمتلقي آفاقًا وأبوابًا لعلوم أخرى متفرعة منها. والملاحظ على هذه الشروط أنها متسلسلة ومترتبة، ويرتبط بعضها بالغيب (الحمد والشكر والطاعة) وبخلافها لا يتحقّق المشروط.

١- استلام الرسالة
٢- الحفظ
٣- الشكر، الحمد، الطاعة
٤- التدبر
٥- التفكر
٦- الاعتبار
٧- تفريغ القلب لها، جمع الذهن والعقل والطمأنينة
٨- تحقق الهدف

وقد وصف الإمام الصادق(ع) هذا الخطاب بأنَّه مما «يعتبِّر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحير فيه الملحدون...»[٣٦]. وهي عبارة تختصر وتستجلي هذا الخطاب وطبيعة البرهان الذي يحقِّق هدفه في الأصناف الثلاثة وهم: المعتبرون، المؤمنون، الملحدون، ولعل تقديم المعتبرين، وهم من يطلبون الحقيقة والاعتبار بموضوعية بالبرهان والحجة.

استراتيجيات الخطاب

أولاً- أساليب الطلب:

تمثّلُ أساليب الطلب المتنوّعة وسائل مهمة لتحريك المتلقي وتوجيهه، ولا سيما إذا كانت موجهة من سلطة أعلى، فهي تغدو أفعالاً إنجازية، وليست مجموعة أوامر فقط، فتحفِّز المتلقي وتستثيره، وتتنوّع هذه الأساليب وأغراضها، ومنها:

١- أفعال الأمر

تسهم أفعال الأمر بشكل كبير في توجيه المتلقي نحو الخطاب وتنبيهه على الكلام التالي، ولا سيما إذا كانت تتعلّق بالتفكير والتعقّل والتوجّه نحو العقل والموضوعية بعيدًا عن الأدلجة والتحيّز. فهي تنجز فعلاً ما يتعلّق باستمالة المخاطب، ولاسيما إذا طال الخطاب وتنوّعت مستوياته وجوانبه، إذ يؤشِّر هذا التكرار والتركيز في بداية كل فقرة على مدى أهمية تحريك العقل وإعمال الفكر في إثبات العقيدة بالأدلة العقلية الدامغة. وتأتي صيغة أفعال الأمر في بداية الفقرات، فتتصدَّر رأس كل فقرة أو مطلب تقريبًا. وفي الجدول أدناه أهمّ الأفعال التي تكررت في النص ولاسيما في بداية الفقرات:

ت	الفعل	التكرار
١.	فكّر	٤٠
٢.	انظر	٣٨
٣.	تأمّل	٣٣
٤.	اعتبر	٢٥
٥.	اعرف	٣
٦.	تفكّر	٢
٧.	تدبّر	٢

يلحظ على هذه الأفعال بشكل عام أنها

ترتبط بالنظر والإدراك العقلي وإعمال الفكر لإدراك الحجج والأدلة، وأكثرها من الأفعال المضعَّفة التي تدلّ بنيتها الصرفية في الأعمّ الأغلب على التكلّف والمبالغة في المعنى (فكّر، تفكّر، تأمّل، تدبّر)، وكذلك صيغة افتعل في (اعتبر) تشير إلى هذه الدلالة، ويبقى الفعلان (انظر، واعرف) وكلاهما في النظر العقلي والتدبّر. وجملة القول: أنَّ الأفعال تسهم بشكل فاعل في توجيه الذهن إلى الحجج والأدلة التي يسردها المخاطِب من أجل استمالة المتلقي واقناعه. إنَّ هذه المجموعة من الأفعال، أو الحقل الدلالي ينتمي إلى فكرة مركزية جامعة تتعلق بالتفكُّر، وترتقي بحال المخاطب إلى مستوى الخطاب، فمع أنَّ الخطاب يكون على قدر السامع بناءً على قاعدة (مخاطبة الناس على قدر عقولهم)[٣٧]، غير أنَّه يحاول أن يرفع المخاطب إلى درجة أسمى، بتوجيهه عن طريق المحسوس الذي يسبق بفعل الأمر، لكنه أمر تخييري يحمل في طياته معنى (الموضوعية التي يتصف بها الباحث عن الحقيقة).

إنَّ توظيف أفعال الطلب في النص يعطي بعدًا إقناعيًا من خلال توظيف حجة السلطة للمتكلم/الإمام (ع) لدى المتلقي تلميذه (المُفضَّل)، فيغدو الحوار تلقيًّا مباشرًا دون اعتراض أو مقاطعة إلاّ في مواضع قليلة، فالمجالس تبدو على وتيرة واحدة واستمرارية وبنفَس واحد، مع اختلاف جهات الموضوع ومناقشاته وأدلته، الاّ أنَّها تصبّ في باب واحد هو التوحيد وإثبات الصانع.

٢- أسلوب الاستفهام موجّهًا إقناعيًا

يولد الإنسان وفيه روح التساؤل والتفلسف عن علة الأشياء، وأسباب وجودها بهذا الشكل دون غيره فضلاً عن الأسئلة الأزلية التي تؤرّقه ما دام موجودًا في هذه الحياة، والسؤال في (توحيد المُفضَّل) سؤال استدراجي وإنكاري في أغلبه، يريد من المتلقي الانقياد والمتابعة، وفي بعض الأحيان غرضه إفحام الخصم وقطع الحجة عليه، وكثيرًا يأتي بالكيفية، بل إنَّ أكثر مطالب الكتاب بُنيَت على البحث في كيفية وجود الأشياء على صورتها الموجودة، وعلة ذلك لأنَّ البحث في أصل الوجود مفروغ منه، إذ يعترف الآخر بوجوده، لكنه ينكر أنّه صادرٌ عن خالق مدبّر حكيم، ولذا ترى أنَّ الأمر بأكمله مبنيّ على فكرة الكيفية، وهو ما يجعل الأداة (كيف) تتصدّر أدوات الاستفهام في النص. إذ تتصدَّر (كيف) التي تسأل عن الحال، وتتضمّن معنى التعجب في أكثر الموارد في النص، ولا شكّ أنَّ طبيعة النص الحجاجي تقتضي السؤال عن الكيفية بالدرجة الأولى؛ لأنَّ ما يشير اليه منشئ النص أمور حسية مدركة بالحس وموجودة ولا حاجة إلى الاستدلال على وجودها؛ لأنَّها من تحصيل الحاصل، لذا يتوجّه المتلقي إلى الكيفية التي تنشأ بها هذه المخلوقات ومتعلقاتها. وأهمّ الأدوات الواردة في النص هي:

ت	الأداة	التكرار
١	كيف	١٠١
٢	هل	٩
٣	أين	٦
٤	متى	٤
٥	أنى	٤
٦	لماذا	٣

والأمثلة في ذلك كثيرة لا يمكن أن نوردها كلها ، لذا سنكتفي ببعض النماذج ومنها

«أفلا ترى كيف أقيم كل شيء من الخلقة على غاية الصواب؟»[٣٨].

«أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل، وسائر الخلال التي بها صلاح الإنسان، والتي لو فقد منها شيئًا لعظم ما يناله في ذلك من الخلل، يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئًا منها، فلم كان كذلك؟»[٣٩].

«فتبًا وخيبةً وتعسًا لمنتحلي الفلسفة، كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها؟»[٤٠].

«أرأيت لو أن داخلاً دخل داراً، فنظر إلى خزائن مملوءة من كل ما يحتاج إليه الناس، ورأى كل ما فيها مجموعًا معدًا لأسباب معروفة أكان يتوهّم أن مثل هذا يكون بالإهمال، ومن غير عمد؟ فكيف يستجيز قائل أن يقول: هذا من صنع الطبيعة في

العالم، وما أعدّ فيه من هذه الأشياء؟»[٤١].

«أنظر إلى شروقها العالم كيف دبّر أن يكون؟... ولو تخلفّت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء؟ أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة لم يكن عندهم فيها حيلة، فصارت تجري على مجاريها لا تفتل ولا تتخلّف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه»[٤٢].

«اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم، ألم يكن سيذوي ويجفّ كما يجفّ النبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقى في الرحم كالموؤد في الأرض؟ ولو لم يوافقه اللبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعا أو يغتذي بغذاء لا يلائمه، ولا يصلح عليه بدنه، ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام واساغته. أو يقيمه على الرضاع فلا يشتدّ بدنه ولا يصلح لعمل؟ ثم كان يشغل أمه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد»[٤٣].

«من جعل الإنسان ذكرًا أو أنثى إلاّ من خلقه متناسلاً؟ ومن خلقه متناسلاً إلاّ من خلقه مؤملاً؟ ومن أعطاه آلات العمل إلا خلقه عاملاً؟ ومن خلقه عاملاً إلا من جعله محتاجًا؟ ومن جعله محتاجًا من ضربه بالحاجة؟. ومن ضربه بالحاجة إلا من توكّل بتقويمه؟ ومن خصه بالفهم إلا من أوجب الجزاء؟ ومن وهب الحيلة إلا من ملكه الحول، ومن ملكه الحول إلا من ألزمه الحجة؟ ومن يكفيه ما لا تبلغه حيلته إلا من يبلغ مدى شكره. فكّر وتدبّر ما وصفته. هل تجد الإهمال يأتي مثل هذا النظام والترتيب تبارك الله تعالى عمّا يصفون»[٤٤].

ويلحظ أنّ أكثر أنماط الاستفهام وصوره جاءت لاستنطاق المخاطَب، ليجد الإجابة من نفسه بالعودة إلى الأولويات العقلية والبديهيات التي لا يختلف فيها اثنان، وهي مسلّمات لا تقبل الإنكار؛ لأنّها لا تحتاج الى دليل.

٣- أسلوب النداء وفاعليته في الإقناع

جاء النداء في النص في (اثنين وستين) موضعاً، وفي أكثر المواضع كان مصاحباً لأفعال الأمر التي أفادت التفكّر والتدبّر. والنداء وسيلة تنبيهٍ مهمة، تدعو المتلقي إلى التوجُّه إلى المخاطِب، فالنداء طلب يستدعي إقبال المخاطَب والالتفات إلى الخطاب، وهو يحقّق جهة الخطاب المباشرة، التي تستبطن المتلقي (المخاطَب) غير المباشر، وهو كلُّ سائل أو شاكٍ أو مشكِكٍ، يمكن أن يتلقى النص كما أشرنا. فربَّما يتشتت الذهن بطول المجلس، أو يرهق السامع الاستماع لأوقات طويلة إلى موضوعات من جنس واحد، فاقتضى الخطاب تنبيهًا وتوجيهًا بين الفينة والأخرى، من أجل إزالة الخمول وعدم الانتباه عن المتلقي. فتأتي عبارة (يا مفضّل) لتدفع هذا الشرود أو التعب الذي يخلقه التركيز وطول المجلس. والملاحظ أنَّ النداء يأتي في صدر الفقرة أو المطلب الرئيس في النص ملحوقة بفعل الأمر في أكثر الأحيان.

ومن أمثلة ذلك وهي كثيرة قوله:

«انظر الآن يا مفضل كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعا على ما يشاكل ذلك عليه، فجعل للذكر آلة ناشره تمتدّ حتى تصل النطفة إلى الرحم»[٤٥]).

«فكّر يا مفضل في أعضاء البدن أجمع»[٤٦].

«فكّر يا مفضل في الطواحن»[٤٧].

«تأمّل الآن يا مفضل ما ستر عن الإنسان علمه من مدة حياته»[٤٨].

«تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته»[٤٩].

«وأعلم يا مفضل أن اسم هذا العالم بلسان اليونانية»[٥٠].

كل هذه الأمثلة وغيرها جاء النداء فيها مصحوبًا بأفعال الأمر، تنبيهاً للسامع وتوجيهًا له، من أجل تحفيز العقل وإثارته ليلتفت إلى هذه الأدلة العقلية على إثبات الصانع المدبّر. فهو- وإن كان موجّهًا الى المفضَّل بالذات، غير أنَّه يمكن أن يكون خطاباً لكل ذات عاقلة منصفة تنكر وجود الخالق المدبّر.

ثانياً- الحوار الافتراضي (قلت- قلنا)

يمثّل الحوار الافتراضي بين طرفين استراتيجية مهمة من الاستراتيجيات التي اعتمدها النص في بناء حجاجه اللغوي، وفي هذا الحوار المفترض يمكن الإجابة عن أكثر الإشكالات التي ترد على المخاطِب من قبل المخاطَب، فهو يعمل على عرض الاحتمالات الممكنة أو الوجوه الممكنة للسؤال، التي ربما يحتملها النص أو تخطر على الذهن من حيث التبادر، لذا كانت هذه الوسيلة ناجعة في كثير من الأحيان- إن لم تكن في أكثرها- في استمالة المتلقي وقطع الطريق بالحجج الدامغة، وهو ما نجده كثيرًا في هذا النص.

ومن أمثلة ذلك وسنكتفي بمثال واحد لضيق المقام قوله في صفة الشمس:

«(الشمس واختلاف الفلاسفة في وضعها وشكلها ومقدارها) فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها.. ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوء نارا، له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع.. وقال آخرون: هو سحابة.. وقال آخرون: جسم زجاجي، يقل نارية في العالم، ويرسل عليه شعاعها.. وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد ماء البحر.. وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار.. وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة: ثم اختلفوا في شكلها.. فقال بعضهم هي بمنزلة صفيحة عريضة.. وقال آخرون: هي كالكرة المدحرجة.. وكذلك اختلفوا في مقدارها.. فزعم بعضهم أنها مثل الأرض سواء... وقال آخرون: بل هي أقل من ذلك. وقال آخرون بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة. وقال أصحاب الهندسة هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة... ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس، دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر، ويدركها الحس، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها، فكيف ما لطف عن الحسّ واستتر عن الوهم؟.. فإن قالوا: ولم استتر؟ قيل لهم: لم يستتر بحيلة يخلص إليها، كمن يحتجب من الناس بالأبواب والستور. وإنما معنى قولنا استتر إنه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام، كما لطفت النفس. وهي خلق من خلقه. وارتفعت عن إدراكها بالنظر.. فإن قالوا: ولم لطف تعالى عن ذلك علوّا كبيرا؟ كان ذلك خطأ من القول، لأنه لا يليق بالذي هو خالق كل شيء إلاّ أن يكون مباينا لكل شيء، متعاليا عن شيء سبحانه وتعالى. (الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء أربعة أوجه وتفصيل ذلك) فإن قالوا: كيف يعقل أن يكون مباينا لكل شيء متعاليا عن كل شيء؟ قيل لهم: الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه، فأولها أن ينظر أموجود هو أم ليس بموجود، والثاني أن يعرف ما هو في ذاته وجوهره؟ والثالث أن يعرف كيف هو وما صفته؟ والرابع أن يعلم لماذا هو ولأي علة؟ فليس من هذه الوجود شيء يمكن للمخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته، غير أنه موجود فقط. فإذا قلنا: وكيف وما هو؟ فممتنع علم كنهه. وكمال المعرفة به. وأماّ لماذا هو؟ فساقط في صفة الخالق، لأنه جلّ ثناؤه علة كل شيء. وليس شيء بعلة له، ثم ليس علم الإنسان بأنه موجود، يوجب له أن يعلم: ما هو وكيف هو؟ كما أن علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم: ما هي وكيف هي؟ وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة... فإن قالوا: فأنتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفا، حتى كأنه غير معلوم؟ قيل لهم: هو كذلك من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه والإحاطة به، وهو من جهة أخرى أقرب من كل قريب إذا استدلّ عليه بالدلائل الشافية. فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد وهو من جهة كالغامض لا يدركه أحد، وكذلك العقل أيضا ظاهر بشواهده ومستور بذاته»[٥١].

ويتضح من هذا النص الطويل كثرة ترديد (قال ومشتقّاتها)، وهو ما يكشف عن نمط الحوار الافتراضي الذي يستدعي كل ممكنات السؤال واحتمالاته، والأجوبة الافتراضية عنها، وهذه الاستراتيجية تقطع الطريق على المخاطب لو احتمل احتمالاً آخر للسؤال، فهو يحاول أن ينتزع من الفكرة

كل المحتملات التي تخطر على ذهن المتلقي عن طريق السؤال أو القول الذي يشير إليه المتلقي، وهي استراتيجية جدلية معروفة تستعرض أكثر الأطروحات الممكنة للنص، وتحاول أن تجيب عنها تارة بالأجوبة النقضية وأخرى بأجوبة حلّية[٥٢]، وهي الأكثر دائمًا.

ثالثًا: التمثيل موجِّهًا إقناعيًا:

ضربٌ من ضروب التشبيه «يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً»[٥٣]، والتشبيه كما يرى البلاغيون «يجمع صفات ثلاث هي المبالغة والبيان والإيجاز»[٥٤]، وتتجلّى أهميته في انتقاء المشبّه به؛ لأنَّه المظهِر لجمال التشبيه ولطافته، ويرى عبد القاهر أنَّ من المتفق عليه عند العقلاء «أنَّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُبهةً، وكسبها منقبةً، ورفع من إقرارها وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها في أقاصي الأفئدة صبابةً وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشغفاً»[٥٥]. إنَّ حُسن التشبيه لا يتجلّى في ذلك حسب، وإنَّما هناك جوانب متعدّدة تظهر جمال التشبيه ورونقه تتجلّى في التشبيهات التي تقرِّب بين الأشياء، وتجعل بعضها مرآة لبعض، ولاسيما في المعاني التي تحتاج إلى الغوص الذي يتطلّب البيان والإقناع[٥٦].

وللتشبيه أثره النفسي والعقلي على المتلقي، إذ تتلون به الصور، وتتجسّد المجردات، وإذا كان القرآن الكريم ذلك النص العالي، استعمل التصوير في رسم مشاهده، ولاسيما فيما يتعلّق بالنعيم والشقاء ومواقف الحساب، فلا غرو أن يلتمّسه الشعراء لتقريب المعاني وإضفاء الحركة والشعور عليها حتى لتبدو كائناً حياً تدبّ فيه الحياة. وهو يسمّى بلاغيا بتشبيه (التمثيل)، وله أثره، ذلك «أنَّ الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنَّما يكون لزوال الشك في الأكثر»[٥٧]. والتمثيل يأتي بعد ضربين من المعاني: الأول «غريب بديع: يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه واستحالة وجوده... والضرب الثاني: ألَّا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج في دعوى كونه على الجملة إلى بينة وحجة إثبات»[٥٨].

ويعدّ التمثيل وسيلةً مهمةً من وسائل تقريب الفكرة إلى الذهن، وتقديم المجرّد بصورة المحسوس، ولاسيما في مواضع الجدل والإقناع التي يسعى فيها المبدع إلى انتزاع الإذعان من المتلقي وتوجيه الخطاب. وفي الخطاب العقلاني كثيراً ما يحتاج النص إلى التمثيل بوصفه مؤيدًا للدليل، فمسائل الفلسفة والوجود والذات الالهية وصفاتها وغير ذلك مّما هو من حديث العقل والتجرّد، لا يمكن أن يدرك دون أن تكون هناك أمثلة وصور تقرِّب هذه المعاني. فهو ليس دليلاً مباشراً على الفكرة ولكنه يؤيّد الفكرة ويدعمها ويجعلها أكثر أنسًا من عالم المجرد. وهو عالم يصعب الحديث فيه عن المادة، بل يرتفع إلى البراهين العقلية التي تنتمي إلى عالم اللامرئي والمجرد. ومن أمثلة ذلك:

العميان والدار:

لمّا كان حديث التوحيد والخالق سبحانه من عالم المجرد، هذا مع الإشارة إلى أنَّ المخاطب لا يؤمن، أو يشكّ على أقلّ تقدير بوجود الخالق، اقتضى المقام أن يتنزل المخاطب في خطابه إلى عالم الحسّ ليصوّر ما يمكن تمثيله، فمن ذلك مثلا قوله (ع):

«إنّ الشكّاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب، والحكمة فيما ذرأ الباري جل قدسه، وبرأ من صنوف خلقه في البر، والبحر، والسهل، والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود، حتى أنكروا خلق الأشياء، وادعوا تكونها بالإهمال، لا صنعه فيها ولا تقدير ولا حكمة من مدبر، ولا صانع، تعالى الله عما يصفون، وقاتلهم أنى يؤفكون، فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا دارا قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس

والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغني عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمة من التدبير، فجعلوا يترددون فيها يمينا وشمالا، ويطوفون بيوتها إدبارا وإقبالا، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار، وما أعد فيها وربما عثر بعضهم بالشيء الذي وضع موضعه، وأعد للحاجة إليه، وهو جاهل للمعنى ولما أعد ولماذا جعل كذلك؟ فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة. فإنهم لما غربت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، فلا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقته، وحسن صنعته، وصواب هيئته. وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه، والأرب فيه، فيسرع إلى ذمه ووصفه بالإحالة والخطأ، كالذي أقدمت عليه المانية الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة، وأشباههم من أهل الضلال المعللين أنفسهم بالمحال»[٥٩].

يشير النص إلى مثال دقيق وصورة مفصلة عن حال المشككين بحكمة الصانع وقدرته لقصور في أدواتهم وعدم إعمال عقولهم أو بحسب تعبير النص " فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود"، من خلال تشبيههم بحال العميان الذين دخلوا دارًا متقنّة ومرتّبة، ولكن قصورهم البصري والبصيري حال دون الوقوف على عظمة الصانع وحكمته. فالأمر متعلّق بقابلية القابل وليس بفاعلية الفعل- على حد تعبير أهل الفلسفة- فغياب الأسباب عن عقول هؤلاء القوم هو الذي جعلهم ينكرونها ويذمّونها، بل ربما انقلبت الفكرة فرأوا أنَّ ما يسرّه الله وبسّطه لخلقه في الأرض عبءٌ أو عقبةٌ في طريقهم، فمثلهم كمل الأعمى الذي لا يرى هذا الترتيب والدقة في وضع الشيء موضعه، فينكر أهميته وفضله؛ لأنَّه محجوب وممنوع عن رؤية هذا الجمال.

والتشبيه جاء بصورة التمثيل المنتزعة من صورة العميان والدار والمفروشات وصورة التحيّر والتردّد والتعثّر التي نالت العميان، وهي أشبه بصورة الملاحدة والمنكرين، في مشهد متحرك ينبض بالحياة أقرب إلى التصوير المشهدي أو السردي بحيث يصوّر أدقّ تفاصيل المشهد حتى يبدو للقارئ أنه شاخص أمامه يراه بكل جوارحه ووعيه بقدرة الخيال ودقّة الوصف، مع تبرير منطقي عقلاني ناتج عن فقدان القدرة على البصر لدى العميان التي منعتهم من رؤية تلك الحقائق.

الصبيان والدواء:

«والمنكرون لهذه الأمور المؤذية بمنزلة الصبيان الذين يذمون الأدوية المرة البشعة، ويتسخطون من المنع من الأطعمة الضارة، ويتكرهون الأدب والعمل، ويحبون أن يتفرغوا للهو والبطالة، وينالوا مطعم ومشرب، ولا يعرفون ما تؤديهم إليه البطالة من سوء النشو والعادة، وما تعقبهم الأطعمة اللذيذة الضارة من الأدواء والأسقام، وما لهم في الأدب من الصلاح، وفي الأدوية من المنفعة، وإن شاب ذلك بعض الكراهة»[٦٠].

من المسائل الفلسفية القديمة قدم البحث الفلسفي(مشكلة الشرور)[٦١]، وهي من الشبهات التي كثيرًا ما تمسك بها الملحدون في بناء إلحادهم وضلالاتهم، من باب: لماذا تحدث الكوارث والزلازل والأمراض والأوبئة وغيرها؟ فأمّا أنْ يكون الخالق رحيمًا، فلا مجال لهذه الأمور في مملكته، أو أن يكون غير قادر على ردها- وهذا منطق العجز والضعف، والرب لا يكون ضعيفًا أو عاجزًا؛ لأنَّها من صفات النقص لا الكمال[٦٢].

وتبقى مشكلة الشرور مطروحة في البحث الفلسفي والأخلاقي والعقدي، وقد بحثت في مباحث العدل الإلهي في العقائد، غير أنَّ أصل الشبهة في الأصل بصفات الربِّ، فالإيمان بخالق رحيم قادر عليم، يمكن أن يفضي إلى نسف هذا الإشكال من أصله؛ لأنَّ ذلك يجعلنا نؤمن بأنّ كل ما يحدث مّما يطلق عليه بـ(الشرور) هو:

١- أمَّا أن يكون نسبيًا، فما هو شر بالنسبة للنبات

والحيوان وحتى الإنسان قد يكون خيرًا لغيره، فمثلاً أكل الحيوانات وقطع الاشجار وغير ذلك مّما هو من صنع الإنسان، يكون لفائدة الإنسان وخدمته.

٢- أو أنَّ كل ما يحدث في الحياة ممّا يعدّه الإنسان شرًا كالكوارث والزلازل والأمراض والأوبئة، هي لمصلحة الإنسان ولفائدة قد تخفى علينا، غير أنّها تكون لفائدة أكبر وأهمّ، فليس كل ما لا ندرك معرفته لا مصلحة فيه؛ لأنَّ علم الإنسان محدود، ولا قدرة له على إدراك المصالح كلها.

ولنعد إلى النصوص موضع الدراسة، فإنَّها تحاكي علاج مشكلة الشرور من وجوه مختلفة وبأمثلة متنوّعة محسوسة في العادة؛ لأنَّ النفس تأنس بالمرئي والمحسوس، أكثر من أنسها بغير المرئي. في مثل الصبيان والدواء، نرى أنَّ الصبي ينكر الدواء ويعزف عن شربه مع ما فيه من منفعة للشفاء من الأسقام، ولكن لكراهته له وفكره القاصر عن معرفة أثره الآجل، كراهة منه للأثر العاجل، ويفضّل اللهو واللعب على الالتزام بما يجعله يشفى من سقمه، ويبتعد عن الأطعمة والأشربة الضارة، فإنهم لا يدركون المصلحة الخفية عليهم في تناول الدواء بعد ذلك.

الشجرة المقطوعة:

«وجملة القول إنَّ الخالق- تعالى ذكره- بحكمته وقدرته قد يصرف هذه الأمور كلها إلى الخير والمنفعة، فكما أنه إذا قطعت الريح شجرة أو قطعت نخلة، أخذها الصانع الرفيق، واستعملها في ضروب من المنافع معه فكذلك يفعل المدبر الحكيم في الآفات التي تنزل بالناس في أبدانهم وأموالهم، فيصيرها جميعا إلى الخير والمنفعة... فإنّ قال: ولم تحدث على الناس؟ قيل له: لكيلا يركنوا إلى المعاصي من طول السلامة، فيبالغ الفاجر في ركوب المعاصي، ويفتر الصالح عن الاجتهاد في البر، فإن هذين الأمرين جميعا يغلبان على الناس في حال الخفض والدعة، والحوادث التي تحدث عليهم تردعهم وتنبههم على ما فيه رشدهم، فلو خلوا منها لغلوا في الطغيان والمعصية، كما غلا الناس في أول الزمان. حتى وجب عليهم البوار بالطوفان وتطهير الأرض منهم»[٦٣].

إنّ هذا المثال فيه إجابة جامعة عن أصل كل متعلّقات مشكلة الشرور؛ لأنَّ وصف الخالق بالحكمة والقدرة ينقض كل الشبهات المشكّكة في العدل الإلهي، فكل ما يجري على الخلق من ضروب الشرور المختلفة الطبيعية (كالكوارث والأمراض)، يصبّ في مصلحة الخلق ومنفعتهم، فكما أن قطع الاشجار فيه مفسدة في الظاهر، غير أن مبدأ خدمة الأشرف هو الحاكم هنا، إذ لما كان الإنسان أشرف المخلوقات وخليفة الله، فإنَّ الإنسان الصانع يستفيد من قطع الأشجار في صناعة لوازم الحياة.

وإنْ سئل عن علة حدوث هذه الشرور، أفلا يستطيع الخالق أن يبدع عالمًا خاليًا من الشرور؟

تأتي الإجابة هنا لبيان علّة الشرور- بعد التسليم بحكمة الخالق وقدرته قطعًا- إنها لغرض التهذيب وعودة المخلوق إلى خالقه، فالصالح منهم يزداد إيمانًا وتكاملاً، والطالح يلتفت إلى نفسه ويثوب إلى رشده، ولا يتمادى في طغيانه وعنفوانه الفارغ، بل يرى قدرة خالقه وعظمته، فيعود إلى فطرته السليمة، ورسالته الكونية في خلافة الخالق سبحانه وإعمار الأرض والوصول إلى أقصى درجات الكمال.

«كما يعرض في الصناعات، حين يتعمد الصانع الصواب في صنعته، فيعوق دون ذلك عائق في الأداة، أو في الألة التي يعمل فيها الشيء، فقد يحدث مثل ذلك في أولاد الحيوان للأسباب التي وصفنا، فيأتي الولد زائدًا أو ناقصًا أو مشوهًا، ويسلم أكثرها فيأتي سويا لا علة فيه، فكما أن الذي يحدث في بعض أعمال الأعراض لعلة فيه لا يوجب عليها جميعا الإهمال وعدم الصانع، كذلك ما يحدث على بعض الأفعال الطبيعية لعائق يدخل عليها، لا يوجب أن يكون جميعها بالعرض والاتفاق»[٦٤].

يشير هذا التمثيل أو التشبيه إلى مشكلة الشرور المتعلقة بالتشوهات التي تصيب المخلوقات فيأتي بزيادة أو نقصان أو تشوه ما، والعلة المذكورة

هنا علة تستميل المتلقي لإقناعه وربما لم تكن هي العلة الوحيدة أو الرئيسة، وملخّص الفكرة أن الصانع الذي يتعمّد الجودة في صناعته، ولكن ربما حال دون ذلك عائق ما في الأداة نفسها أو الآلة التي يعمل بها، فيأتي ناقصا أو زائدًا، في نسبة ضئيلة جدًا قياسًا بالصحيح والجيد منها وغير المعتل، فكثرة الجيد تغطي على الرديء، ومدار الفكرة هنا أنَّ هذا الأمر لا يدل على عدم الصانع أو إهماله، أو الصدفة والاتفاق. وإنّما يدلّ على وجود صانع حكيم مدبّر. ولكن ربما ينقدح في ذهن المخاطب أنَّ هذا العائق الخاص بالأداة أو الآلة هل يمكن أن يتجاوزه الصانع ويتغلب عليه أم هو أكبر من ذلك؟ واذا انتقلنا إلى المصطلح الفلسفي هل الخالق أو الصانع عندما صنع تلك المخلوقات كان قادرا على تجاوز هذا النقص أو لا؟ فإن كان قادرًا فلمَ وضعه؟ وإن لم يكن قادرًا فهو عاجز وإذا كان عاجزًا فهو مفتقر واذا افتقر لم يكن إلها؟

والبحث هنا متعدّد الوجوه ومتداخل، فإثبات وجود إله غير إثبات صفاته وغير البحث في مشكلة الشرور، والدخول من باب الشرور؛ لأنَّهُ حسيٌّ وملموس وقريب، فيخلق التفاعل بين المخاطب والمتلقي. وهذه التساؤلات تعيدنا أولاً إلى إثبات وجود الصانع، ثم التسليم بحكمته وقدرته لنجيب عنها، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

إنّ الخطاب السابق الذي تضمّن مثال الصانع يوحي بعلة من مجموعة علل، قد لا يناسب المقام ذكرها لصعوبة استيعابها من المتلقي أو لأنّها مستبعدة، أو لحاجتها إلى مقدمات تفصيلية تحتاج إلى البسط والإطناب، لذا اكتفى المخاطِب بعلّة قريبة مأنوسة ومختزلة من سنخ الإشكالات المادية التي يطرحها الملاحدة والمنكرون، دون الخوض في التفاصيل. من خلال الاتكاء على المقارنة بين صورتين من حيث وجوه التشابه، فهو تشبيه صورة بصورة، ولكنه لم يكن مقصودا لذاته، بل كان يسعى إلى استمالة المخاطَب وعرض الحجة التي تجد قبولاً وأنسًا عنده، بعيدًا عن التأصيل الفلسفي للفكرة والأبحاث المفصلة. إذ «يغدو نجاح الخطاب مرتبطًا بالاختيار الحسن للحجج والوجوه الأسلوبية»[٦٥]. وكل الأمثلة التي ذكرت في النص هي أمثلة قريبة ومحسوسة وواقعية، تناغم الحس وتستدعي ذاكرة المتلقي، وتربطها بقضايا مجردة تتعلّق بالخلق وعظيم الصنع[٦٦].

الخاتمة

في ختام هذه القراءة لابد لنا أن نلخِّص أهمّ ما أسفرت عنه من نتائج، ومنها:

١- كان سبب إملاء هذا الكتاب هو الحوار الذي وقع بين المُفضَّل بن عمر وابن أبي العوجاء الملحد، ولم يكن المُفضَّل- حينها- قادرًا على الردّ؛ لذلك هرع إلى إمامه(ع) ليستلهم منه فنون الردّ والاستدلال العقلي.

٢- حدَّد الخطاب معالم التلقي للعلم وشروطه وهي: حسن الاستماع، والحفظ، والتدبُّر، والتفكُّر، والاعتبار.

٣- وظَّف الخطاب تقنيات كثيرة في الإقناع لعل من أهمّها البراهين والحجج التي وضعت بصور مختلفة وتلبّست بأشكال مأنوسة لا يمكن رفضها من كل عاقل منصف.

٤- أفعال الطلب أخذت مساحة واسعة من الكتاب؛ لتنبيه المخاطب وتحفيزه على التدبّر والتفكّر، وأكثرها كان يدور حول التدبر والتفكر والتأمل حتى أنَّ أحد الأعلام اختار عنوان (فكِّر)[٦٧] لكتاب التوحيد هذا، لكثرة تردّد هذه العبارة فيه واهتمامه بالعقل والفكر.

٥- السؤال في كتاب التوحيد كان سؤالاً لإثارة الفكر والاستنكار والتعجّب، ولم يكن سؤالاً عن جهل، أو طلباً لتقصّي حقيقة ما، بل كان وسيلة لخلق حب المعرفة واستنكارًا وتعجباً تارة أخرى.

٦- كان الخطاب يستدعي المنادى بين وقت وآخر، من أجل رفع السأم عن المخاطب وتنبيهه إلى أهمية هذا الخطاب، فربما يقلّ التركيز أو الانتباه مع طول المقام.

٧- من بين وسائل الإقناع واستراتيجياته كان الحوار الافتراضي بين الأنا والآخر، وهو ممّا جرت عليه عادة المتكلمين والمناظرين، بعبارة: (فإن قيل:... قلنا:...)، فهي وسيلة لتقليب وجوه الكلام وإيراد الأسئلة

المحتملة والإجابة عنها بالبرهان والدليل العقلي، بعيدًا عن الأدلة النقلية التي لا يؤمن بها الآخر، وهو ما يهيئ أرضية مشتركة للحوار والإقناع.

٨- شكَّل التمثيل بصورهِ المختلفة وسيلةً ناجعةً في تقريب الدليل وتوضيحه، مستندًا إلى الواقع الملموس والصور الحسية القريبة إلى الذهن، بحيث تكون النفس أكثر تقبلاً واستئناسًا بتلك الصور.

الهوامش:

١- ينظر: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية: ٦٢

٢- في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطاب:٧١.

٣- استراتيجيات الخطاب : مقاربة لغوية تداولية: ٦٢.

٤- Jean Caron: discursives dans les tests projectifs: op, cit, p. ١٨٢نقلاً عن في بلاغة الحجاج: ٧٢.

٥- كتاب العين:٢٢٢/٤، خطب.

٦- لسان العرب:٣٦٠/١، خطب.

٧- المفردات في غريب القرآن: ١٥٠، خطب.

٨- الخطاب: ١٨.

٩- المصدر نفسه: ١٦.

١٠- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ٨٣.

١١- المصدر نفسه:٨٣

١٢- المفردات: ٤١٣

١٣- المصدر نفسه: ٨٩، جدل.

١٤- التعريفات:٦٠.

١٥- المصدر نفسه: ٦٠

١٦- المفردات: ٤٥، بره.

١٧- التعريفات : ٣٦

١٨- كتاب العين: ٣/ ١٠.

١٩- ينظر: مقاييس اللغة: ٢/٢٣- ٢٤.

٢٠- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات: ١٣، نقلاً عن مصنف في الحجاج :٥

٢١- المصدر نفسه: ٦٨، نقلاً عن مصنف في الحجاج:١٤٦

٢٢- المصدر نفسه: ١٥، نقلاً عن مصنف في الحجاج: ٥٤

٢٣- اللغة والحجاج: ١٥.

٢٤- موسوعة البلاغة: ١٤٣/١.

٢٥- مدخل إلى الحجاج- أفلاطون وأرسطو وشاييم بيرلمان: محمد الولي، مجلة عالم الفكر، مج٤٠، ع٢،٢٠١١م. ١١

٢٦- اللغة والحجاج: ١٧

٢٧- ينظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: ٢٦- ٢٧

٢٨- بلاغة الحجاج في الشعر القديم : ١٧.

٢٩- ينظر: معجم تحليل الخطاب: ٢٣.

٣٠- اللغة والحجاج: ٣٣

٣١- ينظر: المصدر نفسه: ٣١

٣٢- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: ٥٩.

٣٣- سبب إملاء الصحيفة: «روى محمد بن سنان، قال: حدثني المُفضَّل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالسا في الروضة بين القبر والمنبر، وأنا مفكر فيما خص الله تعالى به سيدنا محمدًا (صلى الله عليه وعلى آله)، من الشرف والفضائل، وما منحه وأعطاه وشرفه وحباه، مما يعرفه الجمهور من الأمة وما جهلوه من فضله وعظيم منزلته، وخطير مرتبته، فإني لكذلك، إذ أقبل (ابن أبي العوجاء). فجلس بحيث أسمع كلامه فلما استقر به المجلس، إذ من أصحابه قد جاء فجلس إليه، فتكلم (ابن أبي العوجاء) فقال: لقد بلغ صاحب هذا القبر العز بكماله، وحاز الشرف بجميع خصاله، ونال الحظوة في كل أحواله، فقال له صاحبه: إنه كان فيلسوفًا ادعى المرتبة العظمى، والمنزلة الكبرى، وأتى على ذلك بمعجزات بهرت العقول، وضلت فيها الأحلام، وغاصت الألباب على طلب علمها في بحار الفكر، فرجعت خاسئات، وهي حسر، فلما استجاب لدعوته العقلاء والفصحاء والخطباء، دخل الناس في دينه أفواجًا، فقرن اسمه باسم ناموسه، فصار يهتف به على رؤوس الصوامع، في جميع البلدان والمواضع، التي انتهت إليها دعوته، وعلتها كلمته، وظهرت فيها حجته برًا وبحرًا، سهلاً وجبلاً، في كل يوم وليلة خمس مرات مرددا في الأذان والإقامة، ليتجدد في كل ساعة ذكره، ولئلا يخمل أمره. فقال (ابن أبي العوجاء): دع ذكر محمد (صلى الله عليه وعلى آله) فقد تحير فيه عقلي، وضل في أمره فكري. وحدثنا في الأصل الذي نمشي له... ثم ذكر ابتداء الأشياء، وزعم ذلك بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، ولا صانع ولا مدبر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر، وعلى هذا كانت الدنيا لم

ولا تزال!

(محاورة المُفضَّل مع ابن أبي العوجاء) (قال المُفضَّل): فلم أملك نفسي غضبًا وغيظًا وحنقًا، فقلت: يا عدو الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جل قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصورك في أتم صوره، ونقلك في أحوالك حتى بلغ حيث انتهيت. فلو تفكرت في نفسك وصدقك لطيف حسك، لوجدت دلائل الربوبية وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جل وتقدس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة، فقال: يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلمناك، فإن ثبتت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك، وإن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما سمعت، فما أفحش خطابنا، ولا تعدى في جوابنا وأنه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق، ولا طيش ولا نزق يسمع كلامنا، ويصغي إلينا ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا، وظننا قطعناه، دحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير، يلزمنا الحجة، ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردا، فإن من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه. قال المُفضَّل: فخرجت من المسجد محزونًا مفكرًا فيما بلي به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها، فدخلت على مولاي (عليه السلام) فرآني منكسرا، فقال: ما لك؟ فأخبرته بما سمعت من الدهريين، وبما رددت عليهما. فقال: يا مفضل لألقينَّ عليك من حكمه الباري وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم، والسباع، والبهائم، والطير، والهوام، وكل ذي روح من الأنعام والنبات، والشجرة المثمرة، وغير ذات الثمر والحبوب، والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكول، ما يعتبر به المعتبرون ويسكن إلى معرفته المؤمنون: ويتحير فيه الملحدون فبكر علي غدا»، توحيد المفضل: ص٧- ١٠

٣٤- ينظر: كتاب (فكّر) المعروف بتوحيد المفضل:٢٦ في بيان أسانيد الكتاب.

٣٥- الحمد «الحَمْدُ لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو أخصّ من المدح وأعمّ من الشكر، فإنّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشّكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكلّ شكر حمد، وليس كل حمد شكرا، وكل حمد مدح وليس كل مدح حمدا». المفردات: ٢٥٦

«الشُّكْرُ: تصوّر النّعمة وإظهارها، قيل: وهو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف، ويضادّه الكفر، وهو: نسيان النّعمة وسترها... والشُّكْرُ ثلاثة أضرب: شُكْرُ القلب، وهو تصوّر النّعمة. وشُكْرُ اللّسان، وهو الثّناء على المنعم. وشُكْرُ سائر الجوارح، وهو مكافأة النّعمة بقدر استحقاقه. قوله تعالى:((اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً)) (سبأ/١٣)». المفردات ٤٦١

فكر «الْفِكْرَةُ: قوّة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جولان تلك القوّة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة في القلب، ولهذا روي: «تَفَكَّرُوا في آلاء الله ولا تَفَكَّرُوا في الله»، إذ كان الله منزّها أن يوصف بصورة... قال تعالى: ((إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) [الرعد/٣]، ورجل فَكِيرٌ: كثير الْفِكْرَةُ، قال بعض الأدباء: الْفِكْرُ مقلوب عن الفرك لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها». المفردات: ٦٤٣

عبر «أصل العَبْرِ: تجاوزٌ من حال إلى حال،...، وَالاعْتِبَارُ والعِبْرَةُ: بالحالة التي يتوصّل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد. قال تعالى: ((إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً)) [آل عمران/١٣]، ((فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ)) [الحشر/٢]». المفردات :543 «فَإِذَا قُلْتَ اعْتَبَرْتُ الشَّيْءَ، فَكَأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْءِ فَجَعَلْتَ مَا يَعْنِيكَ عِبْرًا لِذَاكَ: فَتَسَاوَيَا عِنْدَكَ. هَذَا عِنْدَنَا اشْتِقَاقُ الِاعْتِبَارِ... وَالْعِبْرَةُ: الِاعْتِبَارُ بِمَا مَضَى». معجم مقاييس اللغة:٤/ ٢٠٩-٢١٠. والاعتبار: «التَّأمّل والتَّدبّر والاستدلال بذلك على عِظَم القدرة وبديع الصَّنعة. النَّظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها؛ ليعرف بالنَّظر فيها شيء آخر من جنسها». معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٤٥٠/٣.

٣٦- توحيد المفضل: ١٠
٣٧- وردت روايات كثيرة في هذا المعنى منها: ((أمرتُ أن أكلم الناس على قدر عقولهم))، كشف الخفاء ومزيل الإلباس: اسماعيل بن محمد العجلوني(ت١١٦٢هـ): ١٩٢، حديث رقم ٥٩٢.
٣٨- توحيد المفضل:١٩
٣٩- المصدر نفسه: ٢٦
٤٠- المصدر نفسه: ٣٤
٤١- المصدر نفسه:٥٠
٤٢- المصدر نفسه: ٩٣
٤٣- توحيد المفضل:١٦
٤٤- المصدر نفسه:٣٣
٤٥- المصدر نفسه:٢٠
٤٦- توحيد المفضل: ١٩
٤٧- المصدر نفسه : ٣٣
٤٨- المصدر نفسه: ٤٢
٤٩- المصدر نفسه: ٦٨
٥٠- المصدر نفسه: ١١٧
٥١- توحيد المفضل : ١٤٤
٥٢- المقصود بالجواب النقضي: رد حجة الخصم بالطعن في شرعيته للسؤال مثلاً بالإتيان بحالات مشابهة، والحلّي: الرد الموضوعي والعلمي على حجج الخصم.
٥٣- الصناعتين :٢١٦.
٥٤- المثل السائر:١: ٣٧٧.
٥٥- أسرار البلاغة :١٢٨ – ١٢٩.
٥٦- ينظر: التصوير البياني: ١٢٣.
٥٧- أسرار البلاغة :١٣٨- ١٣٩.
٥٨- أسرار البلاغة :١٣٩.
٥٩- توحيد المفضل: ١٢
٦٠- المصدر نفسه: ١٣٢
٦١- في بيان مفهوم الشر: يشير صاحب المفردات الى أنَّ معنى الشر مرتبط بضده وهو الخير، فالشرّ هو ما يرغب عنه الكل، وهو على ضربين: مطلق ومقيد، فالمطلق: وهو أن لا يكون مرغوبًا فيه بكل حال وعند كل أحد، ومقيد: وهو أن يكون خيرًا لواحد شرًا لآخر. ويأتي اسمًا ووصفًا بمعنى أشر. وأما في الاصطلاح فهو عبارة عن عدم ملاءمة الشيء الطبع، (المفردات: ١٦٠). ويفرق أبو هلال العسكري بينه وبين الضر بقوله: إنَّ السقم وعذاب جهنم ضر في الحقيقة وشر مجازًا، وشرب الدواء رجاء العافية ضرر يدخله الإنسان على نفسه وليس بشر، والشاهد على أن السقم وعذاب جهنم لا يسمى شرًا على الحقيقة أن فاعله لا يسمى شريرا كما يسمى فاعل الضر ضارًا. (الفروق اللغوية: ٢٢٥)

وجاء في الموسوعة الصوفية: "العدم شرّ محض وبالذات؛ لأنّه لا يستند الى الحق سبحانه، والشرَّ ضد الخير، وهو قسمان: شر بالذات هو العدم، وهو الشر المحض، وشر بالعرض هو العدم بمعنى الحابس للكمال عن مستحقه، والصوفي الحق يعي وجود النوعين ويعرفهما، وفلاسفة الصوفية يطلقون عليها اسم الشر الفلسفي وعندهم أن الشر الطبيعي هو ما يكون بالأشياء من نقص، كالجهل والضعف والتشوه في الخلقة، وأما الشر الاخلاقي فيطبقونه على الافعال المذمومة". ويمكن الاشارة الى أنَّ الشر يعبِّر عن ثلاثة معانٍ:

الشر الطبيعي: ويطلق على كل نقص مثل الضعف والتشويه في الخلقة والمرض والالام وما يشبهها.

الشر الاخلاقي: ويطلق على الأفعال المذمومة وعلى مبادئها من الأخلاق وعلى كل ما يحق للإرادة الصالحة أن تقاومه. فالشر الأخلاقي إذن هو الرذيلة والخطيئة.

الشر الفلسفي (الميتافيزيقي): ويطلق علة نقصان كل شيء عن كماله، أو الحابس للكمال عن مستحقه، هو أما أن يكون بالذات أو بالعرض، والشر المطلق هو العدم المطلق. المعجم الفلسفي: ٦٩٥/١-٦٩٦.

٦٢- ينظر: مشكلة الشر ووجود الله: ١٠٨- ١٤٥
٦٣- توحيد المفضل: ١٣٥
٦٤- توحيد المفضل: ١٣٥
٦٥- في بلاغة الحجاج: ٣٠١.
٦٦- وهناك أمثلة أخرى مثل :البدن ودار الملك:

«وسأمثل لك في ذلك مثالاً: إنَّ البدن بمنزلة دار الملك، له فيها حشم وصبية وقوام موكلون بالدار، فواحد لقضاء حوائج الحشم وإيرادها عليهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنه، إلى أن يعالج ويهيأ، وآخر لعلاج ذلك وتهيئته وتفريقه، وآخر لتنظيف ما في الدار من الأقذار وإخراجه منها، فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين، والدار هي البدن، والحشم هم الأعضاء، والقوام هم هذه القوى الأربع. ولعلك ترى ذكرنا هذه القوى الأربع وأفعالها- بعد الذي وصفت- فضلاً وازدياداً، وليس ما ذكرته من هذه القوى على الجهة التي ذكرت في كتب الأطباء ولا قولنا فيه كقولهم؛ لأنهم ذكروها على ما يحتاج في صناعة الطب وتصحيح الأبدان، وذكرناها على ما يحتاج في صلاح الدين وشفاء النفوس من الغي كالذي أوضحته بالوصف الشافي والمثل المضروب من التدبير والحكمة فيها»، توحيد المفضل: 42.

والشمس: «فمن ذلك هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها... ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوء نارا، له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع... وقال آخرون: هو سحابة... وقال آخرون جسم زجاجي، يقل نارية في العالم، ويرسل عليه شعاعها...وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد ماء البحر.. وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار... وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة: ثم اختلفوا في شكلها.. فقال بعضهم: هي بمنزلة صفيحة عريضة.. وقال آخرون: هي كالكرة المدحرجة... وكذلك اختلفوا في مقدارها.. فزعم بعضهم أنها مثل الأرض سواء... وقال آخرون: بل هي أقل من ذلك. وقال آخرون: بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة. وقال أصحاب الهندسة: هي أضعاف الأرض مائة وسبعين مرة... ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس، دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر، ويدركها الحس، قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها، فكيف ما لطف عن الحس واستتر عن الوهم؟» توحيد المفضل: ١٤٤، اذ يشير هذا المثال إلى أنَّ الخلق إذا كانوا عاجزين عن معرفة كنه الشمس، وهي الظاهرة المبصرة بالعين، فكيف بما لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار، واذا كان الاختلاف واقع في ماهيتها وشكلها واشعتها ونورها- وهي المنظورة الواضحة، فكيف بما لا تحيط به الأبصار، ولا تنالها الأوهام. وأنَّى للمتناهي إدراك اللامتناهي؟

والذكر والأنثى والباب: «لو رأيت فردا من مصراعين فيه كلوب، أكنت تتوهم أنه جعل كذلك بلا معنى؟ بل كنت تعلم ضرورة أنه مصنوع يلقى فردًا آخر، فيبرزه ليكون اجتماعهما ضرب من المصلحة. وهكذا تجد الذكر من الحيوان، كأنه فرد من زوج مهيأ من فرد أنثى، فيلتقيان فيه من دوام النسل وبقائه، فتبا وخيبة وتعسا لمنتحلي الفلسفة كيف عميت قلوبهم عن هذه الخلقة العجيبة حتى أنكروا التدبير والعمد فيها؟» توحيد المفضل: ٣٤.

٦٧- أسماه بذلك النجاشي في رجاله في ترجمته للمفضل بن عمر: ينظر: كتاب فكّر، المقدمة ١٩.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية: د.عبد الهادي ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، بنغازي- ليبيا، ط١، ٢٠٠٤م.

٢- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق: د.أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، (د.ط)،(د.ت).

٣- بلاغة الحجاج في الشعر القديم: د. محمد سيد علي عبد العال، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.

٤- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان: د. محمد محمد أبو موسى، مطابع الشروق، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

٥- التعريفات: السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني (٨١٦هـ)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط1، ٢٠٠٣م.

٦- توحيد المُفضَّل: أملاهُ الإمام أبو عبد الله الصادق(ع) (١٤٨هـ) على المُفضَّل بن عمر الجعفي(ت بعد ١٨٣هـ)، علَّق عليه: محمد كاظم القزويني، مكتبة عروج، بغداد، ط١، ٢٠١٤م.

٧- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: د. سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، أربد- الأردن، ط٢، ٢٠١١م.

٨- الخطاب: سارة ميلز، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، ٢٠١٦م.

٩- الصناعتين: أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، ٢٠٠٦م.

١٠- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (د.ط)،(د.ت).

١١- في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطاب: د.محمد مشبال، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، ٢٠١٧م.

١٢- في بلاغة الخطاب الإقناعي: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق، بيروت لبنان، ط2، ٢٠٠٢م.

١٣- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات: د.عبد الله صولة، دار الجنوب، تونس، ط1، ٢٠١١م.

١٤- كتاب فكر المعروف بتوحيد المُفضَّل: أملاهُ الإمام أبو عبد الله الصادق(ع)، على المُفضَّل بن عمر الجعفي الكوفي، مع تعليقات العلامة المجلسي (١١١٠هـ)، تحقيق: الشيخ قيس العطار، مطبعة نكارش، إيران، ط1، ١٤٢٧هـ.

١٥- كشف الخفاء ومزيل الإلباس: إسماعيل بن محمد العجلوني (ت١١٦٢هـ)، دار الكتب المصرية، مصر، ط٣، ١٩٨٨م.

١٦- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الأفريقي (٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٧- اللغة والحجاج: د. أبو بكر العزاوي، الدار البيضاء، مطبعة العمدة، ط1، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

١٨- المثل السائر: أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير الموصلي (٦٣٧هـ)، تحقيق: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

١٩- مدخل إلى الحجاج- أفلاطون وأرسطو وشاييم بيرلمان: د. محمد الولي، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج٤٠، ع ٢، ٢٠١١م.

٢٠- مشكلة الشر ووجود الله: د.سامي عامري، دار تكوين، المملكة العربية السعودية، ط٢، ٢٠١٦م.

٢١- معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو ودومينيك مانغونو، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠٠٨م.

٢٢- المعجم الفلسفي: د. جميل صليبا، منشورات ذوي القربي، مط: سليمانزاده، قم، ط١، ١٣٨٥هـ. ش.

٢٣- معجم اللغة العربية المعاصرة، د.أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٢٤- معجم المصطلحات الادبية المعاصرة: د. سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٢٥- معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو ودومينيك مانغونو، ترجمة: د.عبد القادر المهيري ود.حمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس،(د.ط) ٢٠٠٨م.
٢٦- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،(د.ط)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٢٧- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني(502ه)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة- بيروت، (د.ط)،(د.ت).
٢٨- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة: د. جميل حمداوي، أفريقيا الشرق، المغرب،(د.ط)، ٢٠١٤م.
٢٩- موسوعة البلاغة: تحرير: توماس أ.سلون، ترجمة: نخبة، اشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة- القاهرة، ط1، ٢٠١٦م.